المدائح النبوية المعينية
قراءة في البنية والموضوعات

د. سمير مرزوك

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين ـ الداخلة واد الذهب ـ المملكة المغربية

شهدت الصحراء المغربية حركة علمية وأدبية متميزة إبّان القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، ويمكن اعتبار هذه الفترة من أزهى مراحل الأدب التي عرفتها المنطقة، نظرا من جهة للعدد الهائل لأعلام الفكر والأدب الذين أنجبتهم، ومن جهة ثانية لما رافقها من غنىً وتنوعٍ على مستوى الإنتاج والتأليف، في مختلف صنوف العلم والمعرفة؛ من قراءات وفقه وحديث وتفسير وتصوف وأدب وشعر وطب وفلك وغيرها ...

ويعد فن الشعر من أبرز الأنماط الأدبية التي عرفت ازدهاراً كبيرا على مدى هذه الفترة، فقد تم طرق مختلف الأغراض الشعرية من غزل وفخر ومدح ووصف ورثاء وغيرها. غير أننا سنركز في هذه القراءة على شعر المديح النبوي، الذي اهتم به شعراء المنطقة أيما اهتمام، فقلَّ ما تجد شاعرا صحراويا لم يبدع قصيدة في مدح خير البرية عليه أغلى الصلاة وأزكى السلام؛ شأنهم في ذلك شأن بقية المغاربة الذين تميزوا بعشقهم الأزلي للنبي الكريم ﷺ وعُرفوا بتفانيهم في حبه، وحب آل بيته الطيبين الطاهرين.

وقد جعلت مقالتي المقتضبة هذه مبنية ـ بعد هذا التمهيد ـ على المحاور الآتية:

- **المحور الأول:** قراءة في عنوان المقالة، وتحديد المقصود بالمعينية؛

- **المحور الثاني:** بعض عوامل شيوع وازدهار شعر المديح النبوي في المنطقة؛

- **المحور الثالث:** السمات الفنية لبنية القصيدة النبوية المعينية؛

- **المحور الرابع:** مضامين ودلالات القصيدة النبوية المعينية؛

- **المحور الخامس:** نفي " الغلو " عن النبويات المعينية؛

ثم أنهيتها بخاتمة.

المحور الأول قراءة في عنوان المقالة وتحديد المقصود بالمعينية:

المدائح النبوية: جمع مِدحة أو مديحية؛ نسبة إلى المديح النبوي، وهي القصائد الشعرية التي تُنظم في جناب النبي الكريم محمد ﷺ إيمانا به وحبا له وثناء عليه، وتغنيا بما تحلى به ﷺ من خصال حميدة وإشادةً برسالته المنيفة، وتشوقا إلى زيارة روضته الشريفة[1].

ويدخل أيضا ضمن المدائح النبوية " شعر المولديات" نسبة إلى المولد النبوي الشريف، وهي القصائد التي تُدبّج خصيصا للاحتفاء بهذه الذكرى الغالية على قلوب المسلمين عامة والمغاربة على وجه الخصوص وغالبا ما يتم الجمع فيها بين مدح النبي ﷺ ومدح السلطان الذي يقام الاحتفاء بالمولد في حضرته. كما يدخل ضمن شعر المديح النبوي ما يعرف بقصائد " مدح النعل النبوية الشريفة " .

أما المعينية: فنسبة إلى القطب الرباني والعالم المجاهد الكبير، والعلاّمة النحرير؛ محمد المصطفى بن محمد فاضل بن مامّين، الملقب بالشيخ ماء العينين (ت 1328هـ/1910م)[2] ، فمنه تنحدر الأسرة والقبيلة، وإليه تنتسب المدرسة والزاوية.

بخصوص العنوان الفرعي، فالمقصود بالقراءة هنا: تقديم توصيف وملاحظات حول ما تتميز به بنية هذه المدائح من سمات فنية وخصائص شعرية. والبنية: أي الهيئة

1-القصائد التي قيلت في وصف وتصوير نعال النبي ﷺ، راجع فتح المتعال في مدح النعال لأبي العباس أحمد بن محمد المالكي المقري التلمساني (ت1041هـ)، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006م.

2-هو الشيخ محمد المصطفى بن الشيخ محمد فاضل بن مامّين، الملقب بالشيخ ماء العينين. ولد بمنطقة الحوض شرقي بلاد شنقيط عام (1246هـ/ 1830م) من أبرز وأشهر علماء الصحراء المغربية، من مؤلفاته " نعت البدايات وتوصيف النهايات " توفي بتزنيت ودفن بها عام (1328هـ/ 1910م).

والصيغة التي جاءت عليها من حيث معمارها العام ولغتها الشعرية، وفي البنية أيضا سنبحث نهج كل شاعر معيني وطريقتَه الخاصة في التعبير عن موضوعات نبويته. أما الموضوعات: فجمع موضوع، وهو مادة هذه المديحيات ومقصديتها، وما اتخذته مدارا لمتنها.

المعينية إذن، هي تلك النبويات التي نظمها شعراء مدرسة السمارة ـ العاصمة العلمية والروحية والجهادية للأقاليم الصحراوية المغربية ـ وبصفة خاصة ممن اسمه أو لقبه " ماء العينين"[1] وهم في غالبيتهم كما هو معروف من أنجال وأحفاد الشيخ ماء العينين، حيث ذاع استخدام هذا الاسم أي "المعينية" في مختلف الأدبيات التي تتعلق بالشيخ ومدرسته أو زاويته؛ فنقول: الزاوية المعينية، الطريقة المعينية، المدرسة المعينية، الرحلة المعينية، الشعر المعيني ... وعلى هذا المنوال وَسَمْنا هذه النبويات بالمعينية.

فما الذي جعل اسم "ماء العينين" من الأسماء الغالبة ذائعة الصيت والشهرة في العالم بصفة عامة وفي المغرب وأقالِيمه الصحراوية على وجه الخصوص؟ وكيف انتقل من اسم لمسمى إلى مفهوم متداول يتجاذبه الفكر والأدب والتصوف والتاريخ؟

لا شك أن الأمر لم يأت عبثا ولا مُصادفة؛ بل تحكمت فيه عدة عوامل، وتمظهر من خلال عدة تجليات من أبرزها:

أ ـ حفظ أعلام الأسرة المعينية لهذا اللقب وتعلقهم به أشد التعلق، وتوارثهم له، وتسلسله في بنيهم وحفدتهم؛ تقديرا للشيخ ماء العينين وتيمنا وتبركا به، وكيف لا؟

1-ترتيب الأعلام والشعراء بحسب أسمائهم هو ترتيب قائم الذات يصطلح عليه الترتيب الاسمي، سبق وأن سار عليه بعض مؤلفي معاجم التراجم المتأخرين حيث يتم تقديم من اسمه محمدا، تيمنا وتبركا واحتراما للنبي الكريم ﷺ كما عند البخاري (ت256هـ/869م) في كتابه " التاريخ الكبير" والخطيب البغدادي (ت463هـ/ 1071م) في " تاريخ بغداد" وعند ابن يوسف القفطي (ت 646هـ/1248م) في كتابه " المحمدون من الشعراء وأشعارهم " أو تقديم من اسمه عبد الله قبل غيره من الأسماء المركبة مثل عبد الرحمان وعبد الملك ... في حرف العين كما عند الصفدي (ت764هـ/ 1362م) في " الوافي بالوفيات" وعند ابن حجر العسقلاني (ت852هـ/ 1448م) في " تهذيب التهذيب" أو تقديم عمر على عثمان، وذكر علي بعد عثمان مباشرة، في حرف العين أيضا، تقديرا واحتراما للخلفاء الراشدين أصحاب الفضل الجلي والقدر العلي أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم كما عند البرتلي محمد (ت 1219هـ/1815م) في" فتح الشَّكور ".

وهو كما يقول والده الشيخ محمد فاضل بن مامّين (ت 1286هـ/1869م) في شأن تلقيبه بماء العينين «رجوتُ الله أن تكون ماء العينين: عينا يمر بها الوارد فتسقيه، وعينا تمر بالوارد فتسقيه»[1] ؛ أي أن تكون مباركا ويجري الخير على يديك أينما حللت وارتحلت.

وهكذا تجد بأن الوالد يسمي نجله ماء العينين ويوصيه بأن يسمي حفيده ماء العينين، بل أكثر من ذلك، فقد تجد من اسمه ماء العينين وكنيته ماء العينين؛ حتى أن الأمر أصبح يطرح إشكال الائتلاف، ويقتضي دقة التمحيص للتمييز بين هذا العلم وذاك[2] .

ب ـ أن آل " الشيخ ماء العينين " ينتسبون إلى أسرة / قبيلة شريفة الحسب والنسب، عُرف أفرادها بالعلم وتبوّأوا المناصب العالية من قضاء وخطابة وتدريس، وكانت وما تزال كغيرها من قبائل الصحراء تُعامل معاملة حسنة متميزة من سلاطين الدولة العلوية؛ وذلك لارتباطها الوثيق بالعلم والعلماء من ناحية، والحث على طلبه ونشره بين الأنام، ولدفاعها المستميت عن الوحدة المذهبية والوطنية والترابية للمغرب من ناحية أخرى، ناهيك عن الدور الطليعي لأدبائها وشعرائها المبدعين في إغناء وتعزيز ثقافة الصحراء وتراثها العلمي. وهي كما يقول عنها المؤرخ محمد المختار السوسي «أسرة علمية، لا يطاولها في هذا المجد العلمي في كل شمال إفريقيا إلا السنوسية في برقة»[3] .

وصدق ابن الأسرة المعينية وشاعرها الشيخ محمد الإمام (ت1389هـ/1970م)[4]

1-الشيخ ماء العينين، محمد المصطفى. مبصر التشوف على منتخب التصوف، تحقيق: الظريف محمد وعيناق محمد، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط 1، د ت، مقدمة التحقيق، ص:16.

2- من ذلك مثلا التشابه بين علمين من أعلام الأسرة المعينية يحملان اسم ماء العينين ماء العينين، فالأول هو القاضي الأديب المزداد سنة 1948م وصاحب كتاب " في الأدب والمقاومة " ورواية " أنشودة الصحراء الدامية "، أما الثاني فهو الشاعر الشاب المزداد سنة 1981م، حفيد الشيخ ماء العينين بن العتيق ونجل الشاعرة خديجة ماء العينين.

3-السوسي، محمد المختار، سوس العالمة، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، 1414هـ/1984م، ص:140.

4-هو الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، شاعر وعلامة، وأديب أريب، ولد في أكريزيم شرق وادي الساقية الحمراء عام (1310هـ/1892م) من مؤلفاته ذائعة الصيت" الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط " الصادر عام 1376هـ/1957م، توفي بتزنيت ودفن إزاء أبيه عام (1390هـ/1970م) .

حينما قال واصفا ومفتخرا بآله وذويه:

أُولَئِكَ آلُ الجِيهِ مِنْ خَيْرِ مَعْشَرِ ... مِنْ آلِ رَسُــولِ اللَّهِ يَمَّمَهُ رَكْبُ
أَلَـمْ يَكُ مَــاءُ العَيْنِ مِنْهُمْ وَمِنْهُم ... أَبُـوهُ أَبُو الأَقْطَابِ سَادَتُنَا النُّجْبُ
مَتَى جِئْتَهُمْ لَقُوكَ أَهْلاً وَمَرْحَباً ... وَيَلْقَاكَ فِي مَغْنَاهُمُ السَّعْدُ والرَّحْبُ
أَسَاتِذَةٌ فِي مَجْلِسِ العِلْمِ وَالهُدَى ... وَإِمَّا تُرَافِقُهُمْ هُمُ الأَهْلُ وَالصَّحْبُ[1]

ج ـ المكانة الاعتبارية التي حظي بها الشيخ ماء العينين بين أهله وذويه ومريديه، ولدى كافة أعلام الفكر والأدب والتصوف، حيث مدحه الداني والقاصي، بل عُدَّت مدائحه ظاهرة في حد ذاتها، فمدحه أبناؤه وإخوته ومريدوه، وغالبية شعراء المغرب في تلك الفترة؛ أمثال عبد الرحمان بن جعفر الكتاني، وعبد الرحمان بن زيدان والشاعر محمد بن مسعود المعْدْري، والطاهر الإفراني، وغيرهم كثير، ومن ضمن من مدحه أيضا بعض سلاطين الدولة العلوية وعلى رأسهم السلطان الحسن بن محمد.

وقد حاول غير واحد إحصاء المدائح التي قيلت في الشيخ، لكن تعذر عليهم ذلك، فهي مما لا تكفيه العقول ولا تحصيه النقول. يقول الشيخ محمد العاقب بن مايابي الجكني[2]: «حاولت أن أحصي جميع ما بأيدي التلاميذ من ذلك في هذا اليوم، بقطع النظر عما قيل قبله، وعما خرج من تحت أيديهم، أو غاب عن حضرتهم في هذه الساعة، فسألت تلميذا واحدا عمَّا بيده من القصائد، وعن قدر عددها، هل يبلغ سبعين قصيدة ـ مثلا ـ أو يقارب السبعين؟ فقال لي: ينيف على المائة، ولا يبلغ المائتين

1-الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، الديوان، ماء العينين، الشيخ محمد الإمام، الديوان، جمع وتحقيق ودراسة: ماء العينين العالية، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، رقم:17، مطبعة بني إزناسن، سلا، الطبعة 1، 2004م.

2-هو العلاّمة المشارك المتبحر، الأديب الأريب، والشاعر المفوّه المُجيد، " مَا يَابَى " نسبة إلى جده الذي اشتهر بسخائه الكبير، فكان لا يرد سائلا حتى لقب " ما يأبى" أما "الجكني" فنسبة إلى "تَجَاكَانتْ" قبيلة العلم والكرم، التي شهد لها الشناجطة وعلماء الصحراء بالحفظ والضبط والتدقيق والتحقيق؛ حتى قيل: " العلم جَكَنِي ". ولد بولاية الحوض في شنجيط عام 1275هـ/1858م. من مؤلفاته" مجمع البحرين في مناقب الشيخ ماء العينين "، توفي ودفن في فاس عام 1327هـ/1909م. ترجم له: ابن الشمس أحمد، النفحة الأحمدية في بيان الأوقات المحمدية، الجزء الثاني، ص:95 ـ 102 و122 / اليعقوبي سيدي محمد ولد بزيد، مُعجم المؤلفين في القطر الشنقيطي، ص:64 ـ 66.

فعلمت أن لا طاقة لي على حصرها، واعترفت بالعجز عن قدرها»[1].

وها هو الشاعر والفقيه محمد مولود بن أغشممت المجلسي[2] يصوّر هذا العجز في بيتين من جميل القول يمدح فيهما الشيخ ماء العينين، ويبين أنه مهما قيل فيه من قصائد، فسيبقى قاصرا عن الوفاء بحقه وفضله على العلم والعلماء والدين والأمة.

حَوَائِجُهُ عَنْ حَصْرِهَا القَوْلُ قَاصِرٌ كَمَا القَوْلُ عَنْ أَمْدَاحِكُمْ قَاصِرٌ حَقَّا
فَلَمْ يُحْصِهَا جَمْعُ الجَوَامِعِ كَثْرَةً وَلَوْ كَانَ مَعْ شَرْحٍ وَحَاشِيَةٍ نَسْقَا[3]

المحور الثاني بعض عوامل شيوع وازدهار شعر المديح النبوي في المنطقة:

لقد أسهمت عدة عوامل في شيوع وانتشار شعر المديح النبوي بين شعراء المنطقة بصفة عامة والمدرسة المعينية على وجه الخصوص؛ من أهمها هذين العاملين:

أولا: تشبع شعراء المنطقة بتربية دينية؛ أساسها حفظُ القرآن الكريم والمتون الفقهية، والانكباب دراسة وتدريسا على كتب السيرة والشمائل النبوية العطرة.

وفي هذا السياق يمكننا أن نشير إلى ما شكله كتاب "الشفا في التعريف بحقوق المصطفى" للقاضي عياض السبتي (ت544هـ/1149م) من دور كبير في تشكيل رؤاهم الشعرية؛ حتى «أن علماء الصحراء وشيوخها وأئمة الهدي المحمدي فيها، عبروا عن تعلقهم المتين بهذا الكتاب، بل ودأبوا على تدريسه وقراءته وختمه في

1- ابن الشيخ ماميا، الطالب أخيار. علماء وأمراء في مواجهة الاستعمار الأوروبي، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتنمية، مطبعة المعارف الجديدة، ط 2، الرباط، 2011م، الجزء الأول، ص:515.

2- هو العالم الجليل والفقيه النبيل مولود بن أغشممت المجلسي، وأغشممت لقب اشتهر به، وهو اسم منهل كان يألفه كثيرا فغلب عليه وبه عرف. توفي عام 1327هـ/1908م. ترجم له ابن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديدا وتخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة 6 1429هـ/2008 م، ص:356 ـ 358.

3- محمد الأمين خليفة، ديوان مدح الشيخ ماء العينين، تقديم وتحقيق، رسالة لنيل دبلوم السلك الثالث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف: د. أحمد شوقي بنبين، السنة الجامعية 1993 ـ 1994م، الجزء 1 ص:205.

المواسم الدينية، وحرصوا على أخذ الإجازة به، واتصال السند بمؤلفه، وخصصوا له مجالس عامرة تعرف بمجالس " الشفا " واتخذوه مرجعا يعودون إليه في مؤلفاتهم وبحوثهم»[1] .

ثانيا: خصوصيات المرحلة التاريخية التي نُظمت فيها هذه النبويات؛ وهي المرحلة التي تميزت ببسط الاستعمارين الفرنسي والإسباني لسلطتهما على المنطقة، الشيء الذي أدى بالشعراء المعينيين إلى التمسك بعقيدتهم أكثر من أي وقت مضى، والاحتماء بسيرة المصطفى ﷺ واستخلاص المواقف والعبر منها واستلهام ما تميزت به حياته ﷺ من صبر وتحمل للأذى في سبيل إعلاء كلمة الحق؛ فكان اللجوء إلى المديح النبوي باعتباره سُلوةً للأنفاس، وحصنا منيعا وملاذا آمنا في مواجهة التحديات الأجنبية.

يقول الشيخ ماء العينين في هذا السياق:

أَهْـــلاً بِشَهْـــرٍ بِالنَّبِـيِّ مُشَـــرَّفِ وَلَـــهُ الظُّهُـــورُ ظُهُـــورُهُ لَمْ يَخْتَفِ
فَبِجَاهِهِ نَرْجُو الظُّهُورَ عَلَى العِدَا وَظُهُـــورَ مَنْ مِنَّـــا عَلَى وَالمخْتَفِي[2]

المحور الثالث السمات الفنية لبنية القصيدة النبوية المعينية:

إن المتأمل لبعض ما أنتجه شعراء المدرسة المعينية في باب المديح النبوي[3] ستثير انتباهه عدة ملاحظات تهم معمار القصيدة المديحية؛ يمكن أن نجملها فيما يلي:

1- راجع: العلوي، محمد الكبير «كتاب الشفا في الصحراء المغربية»، مجلة " دعوة الحق " تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، السنة 22، عدد 3، رجب 1401هـ/ ماي 1981م، ص:49 ـ 65.

2- الشيخ ماء العينين، محمد المصطفى، ديوان الشيخ ماء العينين، تحقيق بسام محمد بارود، إصدارات الساحة الخزرجية، ط 1، أبوظبي، 1429هـ/ 2008م، ص:128.

3- اشتغلنا هنا بواحد وأربعين (41) قصيدة من إنتاج ستة من شعراء المدرسة المعينية؛ باعتبارهم عينة لموضوع الدراسة، ويتعلق الأمر بكل من الشيخ ماء العينين الأشهر الأكبر، الشيخ أحمد الهيبة، الشيخ مربيه ربه، الشيخ محمد الإمام، الشيخ ابن العتيق ماء العينين، الشاعر محمدِ بن الشيخ أحمد الهيبة. أنظر تراجمهم ضمن هوامش هذه الدراسة، وراجع: مرزوك، سمير. أعلام الحركة الأدبية والفكرية في الصحراء المغربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، أطروحة دكتوراة، تحت إشراف د. عبد الله المرابط الترغي، وعبد اللطيف شهبون، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 2015م، القسم الأول.

أ ـ أنها تتأرجح بين الطول والقصر؛ فمنها النتفة المؤلفة من بيتين أو القطعة التي تقل عن ستة أبيات، إلا أن هذا قليل عند الشعراء الذين اشتغلنا بدواوينهم في هذه المقالة، فلم يتكرر الأمر سوى اثنتي عشرة مرة ضمن واحد وأربعين نبوية، ومنها المطولة التي تتجاوز مائة بيت وتكرر هذا الأمر مرتين، ومنها دون ذلك، وهذا هو الغالب.

ب ـ اعتماد ما يمكن تسميته بالتشكيل الصوتي للحروف الألفبائية وتوزيعها كاملة على أبيات القصيدة، مما يضفي على هذه المديحيات مسحة جمالية، ويسهم في تأثيث بنائها الداخلي، ويبرز في الآن نفسه الكفاءة اللغوية لدى المعينيين من الشعراء، وقوة قرائحهم الشعرية.

مثال ذلك ما نجده عند الشيخ ماء العينين الأشهر الأكبر (ت 1328هـ/1910م) عندما جعل على رأس كل بيت حرفا من حروف الهجاء؛ حيث يقول في البيتين الأول والثاني من إحدى نبوياته:

أَنُورٌ لأَنْــوَارِ المعَــارِفِ سَاطِــعُ ... أَمِ البَرْقُ مِنْ صَوْبِ الأَحِبَّةِ لاَمِعُ
بَلَى إِنْ يَكُنْ نُوراً فَذَا الحَقُّ وَاضِحٌ ... وَإِنْ يَكُ بَــرْقٌ فَالسَّحَــابَةُ هَــامِعُ

إلى أن يقول في البيت الأخير:

وَصَلِّ صَلاَةً مَعْ سَــلاَمٍ عَلَيْهِ مَا ... أُنِيـلَتْ لَدَى الأَطْمَاعِ مِنْكَ مَطَامِعُ[1]

وفي سياق هذا التشكيل الصوتي نسوق مثالا أكثر جلاء ووضوحا سواء من الناحية الكمية أو الكيفية، فها هو الشاعر الشيخ ابن العتيق ماء العينين (ت 1376هـ/1957م)[2] يبدع ديوانا كاملا في مديح المصطفى ﷺ، نظمه عام

1- الشيخ ماء العينين، محمد المصطفى، الديوان، م س، ص:123 ـ125.

2- هو ماء العينين بن العتيق؛ الفقيه والشاعر والأديب الأريب، حفيد الشيخ ماء العينين من أمه العالية أم، ولد في الساقية الحمراء عام (1307هـ/1887م). من أبرز مؤلفاته رحلة حجازية بوسم " الرحلة المعينية "، توفي ودفن بمراكش عام (1376هـ/1957م).

1349هـ/1930م، وسماه " مطالع الأنوار في مديح المختار".

إن المثير في هذا الديوان أنه يتألف من ثمانية وعشرين قصيدة بعدد حروف الهجاء، وكل قصيدة تتكون من ثمانية وعشرين بيتا، وكل بيت يفتتحه الشاعر بحرف من حروف الهجاء مرتبة على التوالي من الألف إلى الياء، والقصيدة الأولى تبتدئ بحرف الألف ويكون الألف رويا لها، والثانية تفتتح بحرف الباء ويكون رويها باء كذلك، وهكذا إلى آخر حروف الهجاء.

ولن نكون أبلغ وأصدق في وصف الديوان من صاحبه الذي يقول في تصديره له: « ... وقد منَّ الله علي بقصائد خدمت بها جنابه الكريم، في بعض المستطاع من مدائح قدره العظيم، نظمتها على أسلوب لم أر من سبقني إليه[1] (...)، وذلك أني جعلت كل قصيدة منها ثمانية وعشرين بعدد الحروف، وكل بيت من القصيدة أفتتحه بحرف على حسب الترتيب المعروف، وجعلت عدة القصائد ثمانية وعشرين كذلك، وكل واحدة تخص برويها من الحروف على المتابعة كما هنالك، وأفتتح بالحرف الذي هو روي القصيدة بيتها الأول (...)، والتزمت في كل قصيدة بحرا تيمّنا بإكمال الأرب، حتى أكملت البحور الخمسة عشر التي استعملها العرب (...)، وسميتها " مطالع الأنوار في مديح المختار"، راجيا من الله أن يُنور بها بصائرنا وأبصارنا، ويقضي بها مآربنا وأوطارنا، ويغفر مآثمنا وأوزارنا، ويجعل إلى الجنة منقلبنا واستقرارنا، وأن يتقبلها تعالى ويجعلها خالصة لوجهه الأعظم، وأن يشملنا ببركاتها من بركاته صلى الله عليه وسلم »[2].

1- هذا الأسلوب الذي يرى الشيخ ابن العنيق ماء العينين بأنه لم ير من سبقه إليه؛ في حقيقة الأمر تم النظم على منواله من طرف سابقيه من الشعراء المشارقة والمغاربة على السواء، مع اختلافات بسيطة بين هذا الشاعر وذاك، ومن أقدم ما وصلنا من ذلك " القصائد الوترية في مدح خير البرية " لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن رشيد البغدادي المتوفى عام 662 هـ؛ حيث نظم تسعة وعشرين قصيدة على عدد حروف المعجم باعتبار " لا " حرفا، إذ تبتدئ جميع أبيات القصيدة بحرف من حروف المعجم ويكون هو الروي. كما وقفت على أسلوب مشابه عند الشاعر محمد بن صالح الصحراوي الروداني (ت 1241هـ/1826م) ضمن ما يعرف أيضا بالوترِيات النبوية؛ حيث قال في التمهيد لها: «(...) فنظمت بعون الله وتوفيقه ثمان عشرة قصيدة، ست عشرة منها في كل بحر من بحور الشعر العربي الستة عشر (...) وافتتحت كل قصيدة من قصائد البحور الستة عشر باسم بحرها أذهى منه كالوليدة، ليغني ذكرُه في أولها عن البحث عمن يريده (...)». ترجم له محمد المختار السوسي في المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1382هـ/1962م، الجزء السادس، ص:23 ـ 52.

2- ابن العتيق، ماء العينين. الديوان، جمع وتحقيق وتقديم محمد الظريف، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء

فمثلاً؛ القصيدة الأولى جعلها في بحر الطويل، ويبدأ بيتها الأول بحرف الألف، وتقوم على روي الألف. يقول:

أَثَارَ الهَوَى بَعْدَ الحِبِيبِ أَدَاؤُهُ فَوَجْدِي بِهِ حَقٌّ عَلَيَّ أَدَاؤُهُ

والبيت الثاني يبتدئ بحرف الباء، يقول:

بِأَنْ أَبْكِيَ الرَّبْعَ المحِيلَ بِجَنْبِهِ فَحَتْماً عَلَى عَيْنِ المعَنَّى بُكَاؤُهُ[1]

أما القصيدة الثانية فجعلها في بحر البسيط، وبدأ فيها بحرف الباء، الذي جعله رويا لها كذلك، وهكذا دواليك حتى بلغ ثمانية وعشرين قصيدة، بثمانية وعشرين حرفا، يكون الحرف الذي على رأسها هو رويها في الآن ذاته.

من وجهة نظرنا، فهذا الأسلوب الفني لا يدخل في إطار الشعر المصنوع المفتعل أو المتكلف فيه، ذلك الذي غايته التنميق والتلاعب اللفظي أو الشكلي؛ وإنما غاية الشاعر هنا إرضاء نفسه العاشقة المحبة؛ فهو يسعى ما استطاع إلى ذلك سبيلا، أن يقدم نبويات على أسمى مرتبة من التهذيب والتجويد والتنقيح؛ حبا في النبي الكريم ﷺ، وتشوقا إلى زيارة روضته الشريفة، واستجلابا لبركته والتماسا لشفاعته، «ولا شك أن عظيم الوسائط من تعظيم الموسوط، وهو أعظم واسطة لله تعالى في فضله المبسوط»[2]. وهذا ما أكده شاعرنا أيضا في ذات التصدير، بقوله «وأن من أحب الوسائل إلى الله وأرجاها للقَبول، وأقوى الأسباب لنيل المعارف والوصول، صرف الهمم والأفكار واشتغال الظواهر والأسرار في نشر محاسنه ﷺ ومآثره، وذكر معرفة ممكنة عن شمائله ومفاخره، لما في ذلك من كمال محبته ﷺ»[3].

التراث والتبادل الثقافي، رقم 18، مطبعة بني إزناسن، سلا، الطبعة الأولى، 2004م، ص:446.

1- نفسه، ص:449.

2- نفسه، ص:445.

3- ابن العتيق، ماء العينين، الديوان، م س، ص:445.

ج ـ محاكاة النماذج الشعرية العربية القديمة، واحتذاء مقوماتها الفنية؛ حيث إن معظم النبويات المعينية جاءت هي الأخرى مبنية على قسمين أساسيين: القسم الذاتي الذي يتجلى في النسيب والوقوف على الأطلال، وفيه يعبر الشاعر عن وجوده النفسي وعواطفه الخاصة، قبل أن يتخلص إلى القسم الغيري الذي يخصصه للموضوع الرئيس / المديح النبوي.

ولا بد لنا هنا، وقبل أن نسوق بعض النماذج الشعرية؛ من وقفة نتساءل عبرها عن العوامل التي أدت بشعراء المدرسة المعينية إلى النظم على منوال القصيدة العربية القديمة، ونبحث من خلالها في تجليات ومظاهر هذا الاتِّباع.

إن تجسيد شعار العودة إلى الذاكرة والتراث، واستيحاء المخزون الذهني في مدائح أعلام المدرسة المعينية، شأنهم في ذلك شأن كافة أعلام الفكر والأدب في الصحراء المغربية؛ لم يكن وليد الصدفة والتقليد؛ بل على العكس من ذلك، تحكمت فيه مجموعة عوامل من أبرزها:

أولا ـ الوسط الطبيعي: حيث إن بيئة صحراء المغرب، لا تختلف كثيرا عن طبيعة وجوّ الصحراء العربية قديما. يقول عباس الجراري في هذا السياق: «فالبيئة الصحراوية في جوها وأشيائها تذكر بالبيئة الجاهلية. والطبيعة الصحراوية كان لها تأثير على الشعراء وعلى تشكيل عالمهم الشعري، وتوضيح فضاء لا حدود لآفاقه وأبعاده، من أطراف مترامية وكثبان رملية وجبال صخرية مع رؤوس ونتوءات. ثم إن هذه الطبيعة أفضت إلى صفاء في الذهن وصدق في الوجدان وتلقائية في التعبير، وقدرة على التعامل مع المحيط والبيئة»[1].

وقد أسهم هذا التناظر بين البيئتين، في تماثل كبير بين قصائد شعراء المدرسة المعينية، وقصائد شعراء العصور العربية الأولى؛ الجاهلي منها والأموي والعباسي، فظهرت قدرتهم على طرق مختلف أغراض وموضوعات الشعر العربي القديم، إلاَّ

1- الجراري، عباس. شعر الصحراء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1988م، ص:14.

أن ذلك لم يكن لأجل المفاخرة والمباهاة، بل لأنها قصائد تعكس واقعهم المعيش وتجسد قيمهم حول الجَمال والإنسان والحياة.

ثانيا ـ العامل المعرفي الثقافي: حيث إن شعراء مدرسة السمارة المعينية، تلقوا ثقافة عربية خالصة، مكنتهم من حفظ قصائد المعلقات، ومختلف دواوين فحول الشعراء القدامى. وقد ساعدهم في ذلك مسامراتهم الشعرية ومساجلاتهم الأدبية الكثيرة والمتنوعة.

أما بخصوص نماذج النبويات التي استلهمت التقاليد الفنية للقصيدة العربية القديمة؛ ابتداءً بالوقوف على الطلل وذكر الديار والدمن والآثار، ووصف الرحلة والنسيب، ثم وصولا إلى الغرض الرئيس، فسنكتفي بنموذجين فقط؛ الأول للشاعر الشيخ مربيه ربه (ت 1361هـ/ 1942م)[1] حيث يقول في مطلع نبويته الحائية:

سَقَـى اللَّهُ المرَابِعَ وَالبِطَـاحَا ... وَيَـا رَبْعَ الهَضِيبَةِ عِمْ صَبَـاحَـا
أَلاَ هَلْ مَـنْ يُبَلِّـغُهُ سَلاَمًـا ... غَـدَايَطْـوِي المَفَـاوِزَوَالبِطَاحَـا

إلى أن يقول متخلصا:

فَتِلْكَ شُمُـوسُ خَيْرِ الرُّسْلِ لاَحَتْ ... مَطَـالِعُهَا فَقَـارَنَتِ الفَـلاَحَـا[2]

والنموذج الثاني للشاعر الشيخ محمد الإمام (ت 1389هـ/1970م) حيث يقول في مطلع إحدى نبوياته:

1- هو الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، العلاّمة المجاهد والشاعر والمصنّف، ولد عام 1298هـ/1879م بموضع يسمى أزمول الطيحة ببادية تيرس. له عدة مؤلفات في موضوع الجهاد أبرزها "لُبانة المجاهدين وبُغية الطالبين" و"العسل المصفى في عدد من استشهد زمن المصطفى ﷺ"، توفي بتافودارت شرق عيون الساقية الحمراء عام 1361هـ/1942م.

2- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، الديوان، جمع وتحقيق وتقديم ماء العينين النعمة علي. منشورات وزارة الثقافة، دار المناهل، الرباط 2007، الجزء 1، ص:256. 260.

أَثَارَ رَسِيسَ الشَّوْقِ قَسْراً لِخَلْفِهِ لُمُوعٌ كَلَمْحِ الطَّرْفِ إِيمَاضُ خَطْفِهِ
فَبِتُّ أَذُودُ العَيْنَ عَنْ سِنَّةِ الكَرَى أُكَفْكِفُ دَمْعاً لاَ يَدَ لِي بِكَفِّهِ
ذَكَرْتُ رُبُــوعاً بِالقُرَيْزِمِ أَقْفَـرَتْ سَقَاهَا مِنَ الوَسْمِيِّ مَنْهَلُ وَطْفِهِ

إلى أن قال متخلصا:

فَعَمَّــا قَرِيبٍ تَنْجَلِي سُــدَفُ النَّــوَى بِإِشْرَاقِ شَمْسِ الحَقِّ مِنْ تَحْتِ سِجْفِهِ
بِطَلْعَةِ خَيْرِ الخَلْقِ أَحْمَــدَ مَنْ بِهِ تَرَوَّتْ عِطَاشُ الكَوْنِ مِنْ سُحْبِ وَكْفِهِ[1]

إن المتأمل لهذين النموذجين، والذي له اطلاع على ثقافة وأدب المنطقة سينتبه لا محالة إلى عنصرين مهمين لا بد من الإشارة إليهما:

ـ **العنصر الأول:** يتعلق بهذه الأطلال والمغاني التي وقف عليها المعينيون من الشعراء؛ إذ نستشف أنهم كانوا بعيدين تماما عن التقليد المشين؛ فاستحضروا نزعتهم الذاتية وعبروا عن ارتباطهم الحميمي والوثيق بهذه الآثار الدارسة؛ التي لم يسمعوا عنها فحسب، ولم يستعيروها من الموروث الشعري القديم كما هو الحال بالنسبة لرواد حركة إحياء النموذج في المشرق؛ بل وقفوا عليها حقيقة ورأوها بأم أعينهم، وبكوا واستبكوا أمامها؛ ويتضح ذلك جليا من خلال ذكر أسماء بعض الأماكن والبقاع المعروفة في الصحراء، من قبيل (البطاح الهضيبة، القريزم)، كما في النموذجين أعلاه، و(العطف، الزمول، ذو الأوتاد، تيرس) في نماذج أخرى متفرقة من قصائد المعينيين وبقية شعراء المنطقة.

كل هذا يؤكد أن ظاهرة الوقوف على الأطلال في شعر المدرسة المعينية قديمة الرسوخ أصيلة المنشأ وتختلف كثيرا عن نظيرتها في المشرق العربي، وظلت إلى حد بعيد، كما ذهب إلى ذلك مفدي أحمد، «حقيقة قائمة نشأت عما يعتور الصحراء من الهدم والأمحال، فهي تحتل في ذاكرة الشعراء المغاربة / المعينيين القيمة نفسها

1- الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين. الديوان، م س، أنظرها كاملة ص:207 ـ 211.

التي كانت تحتلها في ذاكرة الجاهليين. أما شعراء البعث ـ في مصر ـ فلم يعيشوا التجربة، وإن حملوها في نفوسهم»[1].

ـ العنصر الثاني: يرتبط بميل شعراء المدرسة المعينية إلى الألفاظ البدوية، واللغة الفخمة الجزلة التي قد تصل في بعض الأحيان إلى درجة الغامض الذي لا سبيل لفك عويصه ـ على الأقل في وقتنا الراهن ـ من دون الرجوع إلى قواميس اللغة ومعاجمها. ومن ذلك مثلا بعض الألفاظ المذكورة في النموذجين أعلاه من قبيل: (المفَاوِزَ، رَسِيسَ، لُمُوعٌ، إيمَاضُ خَطْفِهِ، وَطْفِهِ، سِجْفِهِ، وَكْفِهِ) ومنه أيضا ألفاظ: (المِغْشَمُ، مَلْعًا، رَاتِكَةٌ، وَخْدًا النَّصَّ)، كما في هذين البيتين من قول الشيخ ماء العينين (ت 1328هـ/ 1910م) في نبويته الرائية:

بَعْضٌ هُمَامٌ أَرِيبٌ مُنْجِدٌ فَطِنٌ وَالشَّهْمُ فِيهِ وَفِيهِ المِغْشَمُ الصَّبِرُ
وَفِيهِ عَانِقَةٌ مَلْعاً وَرَاتِكَةٌ وَخْداً وَرَاسِمَةٌ وَالنَّصَّ لاَ يَذَرُ

وعلى أية حال، فلهذا الأمر ما يبرره؛ حيث أسهمت الطبيعة البدوية الصحراوية والعامل الثقافي في بروز هذا الميل إلى البدوي الصعب، فتجد بأن الشاعر المعيني نشأ وشبَّ متمرّسا بقواميس ومعاجم اللغة العربية، يمتح منها دون تكلف أو تصنع أو خروج عما ألفه. إنه باختصار الذوق العام الذي ميز حياة المعينيين من الشعراء، كغيرهم من شعراء الصحراء الذين عايشوا بيئتها ومختلف مكوناتها الطبيعية، من إبل وبيداء ورمال ونعام وغيرها، فهم «لا يصدرون في إكثارهم من الكلمات الغامضة والألفاظ الغريبة عن تمحل، أو تقليد لبعض شعراء البادية، كذي الرمّة ورؤبة وغيرهما، ولكنهم يعبرون في ذلك عن عالمهم الصحراوي الخشن وحياتهم البدوية القاسية فصعوبة لغتهم هي صورة لثقافتهم الرصينة القائمة على حفظ المتون

1- مفدي، أحمد. الشعر العربي في الصحراء المغربية: جذوره التاريخية، ظواهره وقضاياه، أطروحة لنيل دكتوراة الدولة في الأدب كلية الآداب، والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف: د. عباس الجراري، السنة الجامعية: 1989 ـ 1990م، الجزء الثالث، ص:553.

2- الشيخ ماء العينين، محمد المصطفى، الديوان، م س، ص:48.

اللغوية ودواوين الشعر القديم»[1].

ولقد نبّه العلامة عباس الجراري أيضا إلى هذه الحقيقة عندما أجرى مقارنة بين المدرستين الصحراوية والمصرية، فرأى بأن «مدرسة الإحياء المصرية حين حاولت بعث الشعر القديم، كانت عاجزة عن تذوقه ونقده ومن ثم قنعت بقراءة بعض نماذجه والانفعال بها. ويبدو أن طبيعة الشعر القديم، ولا سيما من حيث اللغة كانت تطرح صعوبات على شعرائها، ولهذا رأيناهم يُهملون الشعر الجاهلي والأموي، ويتجهون للعباسي وللسهل منه، وهي ظاهرة لا نلاحظها عند شعرائنا الصحراويين الذين كانت ثقافتهم اللغوية والأدبية لا تطرح عليهم مثل تلك الصعوبات»[2].

ومما تقتضي الإشارة إليه أيضا أن بعض النبويات المعينية خلت تماما من القسم الذاتي، فتجد الشاعر يبدأها مباشرة بمديح النبي ﷺ والثناء عليه وذكر خصاله الطيبة من دون استهلال ولا استفتاح، إلا أن هذا النمط جاء قليلا، وتمظهر في نتف أو قطع لم تتجاوز أحد عشر بيتا في حدها الأقصى.

ومن نماذج هذه المديحيات البتراء قول الشيخ ماء العينين (ت1328هـ/1910م) في مطلع قصيدته هذه التي تتألف من سبعة أبيات فقط:

مُحَمَّدُنَا الماحِي لَكَ اللَّـــهُ عَظَّمَا مَقَاماً وَقَدْراً فِي البَرَايَا وَكَرَّمَا
عَلَيْكَ صَلاَتِي وَالسَّلاَمَ بِمِثْلِ مَـا إِلَهِي قَدْ صَلَّى عَلَيْكَ وَسَلَّمَا[3]

ومن ذلك أيضا قول الشاعر ماء العينين مُحَمْدِ بن الشيخ أحمد الهيبة (ت1405هـ/1985م) في هذين البيتين من نبوية تتألف في مجملها من عشرة أبيات فقط:

1- الظريف، محمد. الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، مطبعة بني إزناسن سلا، الطبعة 1، 2003م، ص:303.

2- الجراري، عباس. الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة 2، 1402هـ/1982م، الجزء 1، ص:181 ـ 182.

3- الشيخ ماء العينين، محمد المصطفى، الديوان، م س، ص:126.

أَلاَ يَا رَسُـــولَ اللَّهِ جِئْـتُـكَ زَائِـــرًا لِتَقْضِيَ حَوْجَائِي مَدَى العُسْرِ وَاليُسْرِ
فَأَنْتَ الَّذِي لَوْلاَكَ مَا كَانَ كَائِـــنٌ مِنَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَفِي البَرِّ وَالبَحْرِ[1]

رغم أننا لم نقف صراحة على مناسبة القصيدة، يمكن أن نستشف من خلال مضمونها أن الشاعر مُحَمْدِ كان يسعى بشدة لالتماس جاه النبي ﷺ من أجل قضاء مآربه وتحصيل الرزق الحلال والبركة في العمر، كما لو أنه أحس بانفراط عقد حياته، أو أنه كان يعاني من مرض ما، ولذلك جاءت نبويته مباشرة استغنى فيها عن القسم الذاتي.

د ـ أن النبويات المعينية لم تكن في غالبيتها من إنتاج فردي، بل تم نظم بعضها خلال مساجلات إخوانية جمعت أبناء الأسرة المعينية وبعضا من مريدي طريقتهم وزاويتهم؛ فنظموا قصائد مشتركة في مديح خير البرية ﷺ ومن ذلك مثلا تلك المساجلة التي جمعت بين ماء العينين الشيخ مربيه ربه (ت 1361هـ/1942م)، وماء العينين الشيخ محمد الإمام (ت 1389هـ/1970م)، وماء العينين الشيخ الجيه (ت 1361هـ/1942م)، وماء العينين يَحَجْبُ بن خَطْرِ (ت 1403هـ/1983م)، وماء العينين بن الطالب إبراهيم (ت 1352هـ/1934م) وغيرهم. وسنقتصر منها على هذه الأبيات فحسب:

قال الشيخ محمد الإمام:

هُوَ البَـــــدْرُ فِي كُلِّ أَفْعَالِه وَبَحْرُ العُلُومِ الوَسَاعُ العَمِيْقْ
بِـــهِ أَوْدَعَ اللَّهُ مِنْ سِـــرِّهِ حَقَـائِقَ عَنْهَا الصُّدُورُ تَضِيقْ[2]

ثم قال الشيخ مربيه ربه:

1- ماء العينين، مُحَمْدِ بن الشيخ أحمد الهيبة. الديوان، جمع وتحقيق وتقديم ماء العينين النعمة علي، منشورات جمعية الشيخ ماء العينين للتنمية والثقافة مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة 1، 1431هـ/2010م، ص:111.

2- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين. الديوان، جمع وتحقيق وتقديم ماء العينين النعمة علي. منشورات وزارة الثقافة، دار المناهل، الرباط 2007م، الجزء الثاني، ص:460.

بِمَوْلِـــدِهِ فَضُـلَـتْ مَكَّـــــةُ وَبِالمومِنِيـــنَ رَؤُوفٌ شَفِيـــقْ
وَطَابَـــتْ بِهِجْرَتِـــهِ طَيْبَـــةٌ وَنِعْـمَ الرَّفِيـــقُ وَذَاكَ العَتِيـقْ[1]

إنها مساجلات تؤكد لنا القيمة التي استحقها المديح النبوي عند الأسرة المعينية، كما توضح لنا بجلاء قدرة شعرائها على النظم في كل وقت وحين، وتظهر قوة ملكاتهم ومدى تفتق قرائحهم الشعرية.

هـ- أن المولديات المعينية وهي تلك القصائد التي قيلت خصيصا للاحتفاء بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف جاءت هي الأخرى قليلة بالمقارنة مع بقية النبويات التي قيلت من دون مناسبة؛ حيث وقفنا على أربع مولديات فقط من بين واحد وأربعين قصيدة اشتغلنا بها هنا، ما يمكن أن يدلل على أن غالبية المعينيين من الشعراء يرون بأن مديح النبي ﷺ لا يمكن أن يرتبط بمناسبة دون أخرى، أو أن يتم استحضار سيرته ﷺ في بعض المناسبات فقط، وإنما يدخل عندهم في باب الحب الخالص والأوراد اليومية التي دأبوا على ترديدها بكرة وأصيلا؛ تلك التي تعتبر فُرصة للتنافس في إبداع وتدبيج قصائد خالدة تستحضر مقامه ﷺ وتُعدِّد معجزاته ومُناسبةً لطلب شفاعته وعونه يوم يُبعثون.

أضف إلى ذلك أن هذه المولديات ـ على قلتها ـ لم تأت مكتملة الأركان. صحيح أنها مولديات لأنها قيلت أو نُظمت في ذكرى مولده ﷺ إلا أنها جاءت خالية مما يسمى بالمدح السياسي أو المدح السلطاني حيث إنها لم تُلق في حضرة السلطان أو من يقوم مقامه؛ وهو الذي كان يقف وراء الاحتفاء بهذه الليلة المباركة كما هو متداول معروف في تاريخ المولديات بالمغرب. ومن غير المستبعد أن يكون السبب في ذلك عائدا إلى تاريخ إنشائها، فقد نُظمت ثلاثة منها على التوالي أعوام 1340هـ/1922م، و1342هـ/1924م، و1346هـ/1928م، بينما الرابعة والخامسة لم نقف على تاريخهما[2] ، وهذه السنوات كما هو معلوم تشير إلى فترة حالكة من تاريخ المغرب

1- نفسه، ص:460.

2- المولديات الثلاثة للشاعر الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، أنظرها في ديوانه، القسم الأول، م س، ص:139 و213 و286، بينما الرابعة عبارة عن قطعة من خمسة أبيات للشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، راجع ديوانه،

الحديث؛ تمكنت فيها السلطات الاستعمارية من بسط سيطرتها على كافة مناطق البلاد وعزلت شماله عن جنوبه وشرقه عن غربه، ولم يتمكن خلالها أعلام الحركة العلمية بالساقية الحمراء ووادي الذهب من ملاقاة إخوانهم والتواصل معهم في بقية مدن وبلدات المغرب.

ويمكن في هذا السياق أن نستثني قصيدة واحدة للشاعر ماء العينين بن العتيق (ت 1376هـ/1957م) قالها في حضرة السلطان محمد بن يوسف في مسجده الخاص بدار المخزن عام 1356هـ/1937م، وهي أيضا في نظرنا لا تدخل في باب المدائح النبوية، ولا حتى في خانة المولديات؛ بقدر ما تدخل في باب مدح السلطان وتهنئته بذكرى المولد النبوي الشريف؛ فقد جعلها صاحبها في أربعة وثلاثين بيتا، ولم يخصص منها سوى خمسة أبيات لليلة المولد النبوي؛ حلّت هذه الأبيات الخمسة بعد اثنين وعشرين بيتا في مدح السلطان، وهي بذلك ـ أي القصيدة ـ قد خالفت المنهج العام للمولديات الذي ينبني على ثلاثة أقسام رئيسة هي: المقدمة والمديح النبوي والمدح السياسي. وابن العتيق نفسه يؤكد ذلك في تمهيده لها وذكر مناسبتها؛ إذ يقول: «... فلما كان قبل طلوع الفجر بقليل، ختموا المجلس بقصائد من إنشاء بعض أولئك الأجلة في مديح مولانا السلطان وتهنئته بعيد المولد الشريف، وما تفرق النادي حتى صلوا الصبح بمحضر من السلطان، وكنتُ ممن أنشأ تلك الليلة قصيدة في مدح مولانا السلطان وتهنئته بالعيد المولدي»[1].

ولا بأس أن ندرج هنا هذه الأبيات الخمسة:

فَاهْنَأْ بِهَـــا مِنْ لَيْلَةٍ سَرَّتْ بَشَـــا ... ئِرُهَا بِجَدِّكَ وَاسْتَنَـــارَ ظَلَامُهَا
هِيَ لَيْلَـــةُ القَدْرِ المَلَادِيِّ الَّتِـــي ... عَمَّ البَرِيَّـــةَ خَيْرُهَـــا وَسَلَامُهَا
هَلْ فِي اللَّيَـــالِي مَا يُوَازِي لَيْلَـــةً ... عَنْ طَلْعَةِ المُخْتَـــارِ زِيحَ لِثَامُهَا

م س، ص:183، والخامسة للشيخ ماء العينين، أنظر ديوانه م س، ص:127.128.

1- ابن العتيق، ماء العينين. الرحلة المعينية، تحقيق: الظريف محمد، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط 1، 1998، ص:218.

مِنْ حُبِّـــهِ بَالَغْتُ فِي تَعْظِيـــمِهَا أَوَلَيْسَ مِنْ تَعْظِيمِـــــهِ إِعْظَامُهَا
أَحْبِـــبْ بِهَـــا مِنْ مِدْحَةٍ نَبَوِيَّـــةٍ بَاتَتْ تُدَارُ بِمُنْتَدَاكَ مُدَامُهَا[1]

المحور الرابع مضامين ودلالات القصيدة النبوية المعينية:

من ناحية المضمون تعتبر المديحيات المعينية بحقٍّ سيرة نبوية شعرية شاملة، تستعرض مختلف مراحل حياته ﷺ؛ إنها أشجارا وارفة طيبة، يستظل بظلها ويتنسم بأريجها مُنشئها ومنشدها وحافظها والمصغي إليها والمشتغل بها على السواء، الذين ما إن يهزوا بجذعها حتى تساقط عليهم رطبا جنيا. ولعلم اليقين فبمدارسة المديح النبوي تُروى القلوب وتشنف الأسماع وتنشرح الصدور ويسلو الحزين ويفرح.

ترد إذن في النبويات المعينية عدة مضامين من أبرزها (ميلاده ﷺ، الإشارة إلى أسمائه وصفاته وخصاله ﷺ، طلب شفاعته والدعاء والتوسل بجاهه ﷺ، ذكر معجزاته ﷺ، التشوق إلى زيارة مدينته المنورة، غزواته ﷺ، خلفاؤه الراشدون وصحابته رضي الله عنهم، مؤاخاته ﷺ بين المهاجرين والأنصار، حوداث ووقائع رافقت حياته وبعثته ﷺ ...)، غير أننا سنركز هنا على بعضها فقط:

أولا. حب النبي ﷺ والحث على مديحه:

لقد عبر المعينيون من الشعراء عن تفانيهم في حب النبي ﷺ وحب آل بيته الطيبين الطاهرين وعن تشوفهم الدائم إلى زيارة مدينته المنورة وروضته الشريفة. وإن من أبرز تجليات هذا العشق الأزلي إفصاحهم عن عدم قدرتهم على الصبر عن النبي ﷺ وفي ذلك يقول الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين (ت 1361هـ/1942م):

فَيُحْمَدُ مِنَّا الصَّبْرُ إِلاَّ عَنِ النَّبِي وَعَنْهُ انْعِدَامُ الصَّبْرِ يَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَا[2]

يا ألله؛ فشاعرنا يعتبر أن عدم القدرة على الصبر عن حب النبي ﷺ ومديحه ومدارسة

1- ابن العتيق، ماء العينين. الرحلة المعينية، م س، ص:219-220. الديوان، م س، ص:359.

2- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، الديوان، الجزء الأول، م س، ص:143.

سيرته العطرة نعمة من الله جلّ وعلا تستوجب الثناء والشكر، فأكرم بها من نعمة وحبذا.

فَنِعْمَةُ اللَّهِ بِالهَادِي الشَّفِيعِ عَلَى عَبِيـدِهِ نِعْمَـــةٌ عَلْيَاءُ فَيْحَاءُ
فَأَشْكُرُ اللَّهَ حَيْثُ اللَّـــهُ مَنَّ بِـهِ شُكْراً يَطِيـــبُ بِهِ صُبْحٌ وَإِمْسَاءُ[1]

ومن ذلك أيضا دعوتهم إلى الميل والجنوح عن كل ملذات الدنيا ومغريات الحياة إلى ذكر الحبيب ﷺ والجميل في هذا الأمر أنه تم الإخبار عنه من خلال أبيات التخلص أو الخروج، فجاء حقا تخلصا يتألف من وجهين؛ تخلص فني من القسم الذاتي، وتخلص روحي من الأدران وطوائف الشيطان، فنصبح أمام سلوك واقعي يربط المشتاق بالمشتاق إليه، عليه أغلى الصلاة وأزكى السلام.

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر ماء العينين بن العتيق (ت 1376هـ/1957م):

بَرْحُ الصَّبَابَـــةِ لَيْسَ مِنْهُ تَخَلُّصٌ إِلاَّ إِلَى مَـــدْحِ ابْنِ عَبْدِ اللَّـــــهِ
تِلْكَ السَّبِيلُ إِذَا انْتَهَجْتَ سَوَاءَهَا مَا إِنْ يَرُوقُـــكَ مَذْهَـــبٌ إِلاَّهِي[2]

ومن ذلك قول الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين (ت 1337هـ/ 1919م)[3]:

وَقَدْ شَاقَنِي ذِكْرُ الحَبِيبِ مُحَمَّـدِ إِذَا اشْتَاقَ أَقْوَامٌ إِلَى الدَّلِّ وَالخَفَرْ
وَقَدْ شَاقَنِـــي لأَلاَءُ ذِكْرِ حَدِيثِـهِ إِذَا اشْتَاقَ قَوْمٌ لِلثُّغُورِ وَلِلأُشَرْ
وَإِنْ سَمَرُوا فِي أُنْسِهِـــمْ وَحَدِيثِهِمْ فَسِيرَتُهُ عِنْدِي التَّحَدُّثُ وَالسَّمَرْ[4]

1- نفسه، ص:143.

2- ابن العتيق، ماء العينين، الديوان، م س، ص:517.

3- هو الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين، رجل الأدب والجهاد والعلاّمة الدّرّاكة، ولد عام (1294هـ/1875م)، من مؤلفاته " سراج الظلم فيما يجب للمعلم والمتعلم " توفي ودفن بأكردوس نواحي تزنيت وتافراوت عام (1337هـ/1919م).

4- ابن العتيق، ماء العينين. الرحلة المعينية، م س، ص:158ـ159.

ومن تجليات هذا العشق أيضا؛ تفضيلهم لليلة المولد النبوي الشريف على ليلة القدر؛

فِي لَيْلَـــةِ الاثْنَيْنِ خَيْـــرُ وَلَـــدِ
مَوْلِـــدُهُ سُمِّـــيَ يَـوْمَ الأَحَـــدِ
وَعِنْدَنَـــا أَفْضَـــلُ لَيْـــلِ المَوْلِـــدِ
مِنْ لَيْلَـــةِ القَـــدْرِ بِخَيْرِ وَلَـــدِ[1]

ثانيا ـ ذكر ميلاده ﷺ وما رافقه من علامات وبشائر:

تشترك النبويات المعينية بوجه عام في الحديث عن ميلاده ﷺ، إلا أنها تتباين في النهج أو الأسلوب الذي اعتمدته كل نبوية على حدة، فمنها التي وصف فيها ناظمها ليلة المولد النبوي وصفا عاما وكيف أنها غيرت وجه العالم وحملت معها البشرى لسائر الخلق والأنام.

يقول الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين (ت 1389هـ/1970م):

أَيَـا لَيْلَةَ الاثْنَيْنِ حُقَّ لَـكِ الفَخْرُ بِمَوْلِدِ مَنْ يَعْنُو لِطَلْعَتِهِ البَدْرُ[2]

ويقول الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين (ت 1337هـ/ 1919م):

وَيَـالَيلَـةَ المِيلَادِ يَـا خَيْرَ لَيْلَـةٍ بِـكِ ازْدَانَتِ بِكِ الدِّينُ قَـدْ زَهَرْ
تَحَلَّيْتِ بِالمَوْلُـودِ فِيـكِ وَحُلِّيَتْ جُيُودُ اللَّيَالِي مِنْ حُلِيِّكِ بِالنَّضِرْ

1- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، الديوان، الجزء الأول، م س، ص:292، (القصيدة من مشطور الرجز)، وللاستزادة من موضوع المفاضلة بين ليلة المولد وليلة القدر يرجى العودة إلى كتاب " جنى الجنتين في شرف الليلتين: ليلة القدر وليلة المولد " وهناك من سماه " جنى الجنتين في التفضيل بين الليلتين: ليلة القدر وليلة المولد " للإمام الحافظ الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن مرزوق التلمساني المريني (ت 781هـ).

2- الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، م س، ص:183.

وَأَنْتَ رَبِيعِي يَـــا رَبِيعِـي مَرْتَعِي بِمَوْلُودِكَ الأَسْمَى اسْتَدَامَ لَنَـا البُشْرْ [1]

ومنها الذي فصّل في ذلك تفصيلا دقيقا؛ فذكر الولادة والختان وقطع السرة والرضاعة، وغير ذلك مما يرتبط بهذا الحدث السعيد.

فَمَـا اعْتَرَى أُمَّـــهُ مَغْصٌ وَلاَ وَحَمٌ وَأَوْلَدَتْهُ نَقِيًّـــا بَعْدَ تِسْعَتِـــهِ
وَسُـــــرَّ مُخْتَتِنـــاً لِلَّـــهِ مُخْتَتِنٌ مِـــنْ غَيْرِ مُوسَى تَوَلَّى قَطْعَ سُرَّتِـــهِ
وَشَـــبَّ شَهْراً شَبَابَ العَامِ إِنَّ لَـهُ رِزْقاً مِنَ اللَّـــهِ يَجْـــرِي غَيْرَ دِرَّتِهِ
أَمْسَـــتْ حَلِيمَةُ مَلأَى ثَدْيِهَا غَدَقٌ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ دَرٌّ قَبْلَ رضْعَتِهِ [2]

ثم إنها تشترك في ذكر ما رافق حدث الولادة من علامات ومعجزات بغية التأكيد على صدق نبوته ﷺ ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ذكر علامة تداعي إيوان كسرى وخبو نار فارس، يقول الشاعر ماء العينين بن العتيق (ت 1376هـ/1957م):

فَمَاذَا أَحَسَّتْ نَارُ فَارِسَ إِذْ خَبَتْ وَغَارَتْ سَوَاقِيهَا وَخَرَّ مَشِيدُهَا [3]

ثالثا. ذكر معجزاته ﷺ:

حيث تم التطرق لدى جل الشعراء المعينين إلى مختلف المعجزات التي ذكرتها لنا بالتفصيل أمهات كتب السيرة النبوية الشريفة، فلا تخلو نبوية معينية منها. وسأكتفي هنا بالإشارة إلى معجزة الإسراء والمعراج وما واكبها من حوادث من خلال أبيات للشيخ مربيه ربه.

مِنَ البَيْـتِ للأَقْصَى تَمَطَّى بُرَاقَـهُ وَمِنْ ثَمَّ فِي المِعْرَاجِ للسِّدْرَةِ ارْتَقَى

1- ابن العتيق، ماء العينين، الرحلة المعينية، م س، ص:160.

2- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، الديوان، الجزء الأول، م س، ص:217.

3- ابن العتيق، ماء العينين، الديوان، م س، ص:128.

وَفِي الرَّفْرَفِ العَالِي مِنَ السِّدْرَةِ انْتَهى إِلَى قَابَ قَوْسَيْ قُرْبِهِ جَلَّ مُرْتَــقَى[1]

ومنه أيضا الإشارة إلى تصديق أبي بكر الصديق رضي الله عنه لمعجزة الإسراء والمعراج، وكذا الإشارة إلى الصلوات التي فرضت فيها، وكانت خمسين صلاة قبل أن تخفف إلى خمس.

مَــا ثَــمَّ إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ مُنْفَــرِداً وَمِعْرَجُ الرُّوحِ تَــمَّ عِنْدَ سِدْرَتِــهِ
لَمَّــا تَوَحَّشَ زَجَّ اللَّــهُ صَوْتَ أَبِي بَكْــرٍ فَكَــانَ بِهِ إِينَــاسُ وَحْشَتِهِ
أَوْحَى إِلَيْهِ الَّذِي أَوْحَاهُ وَافْتُرِضَتْ خَمْسُــونَ خَفَّفَهَــا أَثْنَاءَ عَوْدَتِهِ[2]

رابعا. العجز:

نقصد بالعجز هنا إجماع الشعراء المعينيين شأنهم في ذلك شأن كافة الشعراء المسلمين الذين مدحوا النبي الكريم ﷺ على عدم قدرتهم على الإحاطة بمدائحه أو معجزاته أو صفاته عليه أغلى الصلاة وأزكى السلام، وقد جاءت الأبيات التي عبرت عن هذا المعطى من الناحية الفنية في غاية الجلال والجمال، وتمكنت من تحقيق مقصدها واستيفاء المراد منها.

فالشاعر مُحَمْدِ بن الشيخ أحمد الهيبة (ت 1405هـ/1985م) يؤكد أن عدّ مدائحه ﷺ من الأمور التي تُعيي وتؤود المفكر/ المبدع، حتى وإن أطال فكره وأمعن نظره.

وَإِذَا أَرَادَ الفِكْرُ عَــدَّ مَدِيحِــهِ أَعْيَا المــفَكِّرَ مَدْحُــهُ أَنْ يُعْدِدِ
لَكِنَّنِــي مُسْتَـخْدَمٌ لِمَدِيحِــهِ أَرْجُــو صَلاَحَ الدِّيــنِ لاَ بِتَرَدُّدِ[3]

1- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، الديوان، الجزء الثاني، م س، ص:444.

2- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، الديوان، الجزء الأول، م س، ص:218.

3- ماء العينين. محمد بن الشيخ أحمد الهيبة، الديوان، م س، ص:88.

وهي أيضا من الأمور التي تدخل في باب الادعاء والكذب الصريح البواح.

وَمَنْ يَدَّعِي مِنْ مَادِحٍ حَصْرَ مَدْحِهِ فَبِالصُّقْرِ امْتَازَ ادِّعَاءً وَبِالْبُقَرْ[1]

فهل بعد ثناء الله عليه ﷺ ثناء؟ هل بعد تزكية الله له ﷺ رفعةٌ وبأواءُ؟ زكاه ربه من فوق سبع سماوات: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2] وأسند إليه جلّ وعلا اسمين من أسمائه الحسنى ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[3]

أَبَعْدَ ثَنَاءِ اللَّهِ مَدْحٌ وَرِفْعَةٌ وَفَخْرٌ وَتَفْضِيلٌ لِخَلْقٍ مِنَ الْبَشَرْ[4]

يتساءل الشاعر الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين (ت 1337هـ/ 1919م).

ودائما مع الشيخ أحمد الهيبة رجل الأدب والجهاد؛ الذي يقر ويعترف بعجزه وقصوره عن مديحه ﷺ وإن أتى بأبلغ نبوية، مؤكدا بأن من يسعى في ذلك فقد جنى الخسارة ليس إلا.

وَمَا مَادِحٌ يَوْماً بِأَبْلَغِ مِدْحَةٍ تَطَاوَلَ إِلاَّ عَنْ مَدَائِحِهِ قَصَرْ
أُقِرُّ بِأَنِّي عَاجِزٌ عَنْ مَدِيحِهِ وَمَنْ سَامَهُ حَصْراً فَقَدْ رَبِحَ الخَسَرْ[5]

ومثله قول الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين (ت 1361هـ/1942م):

لَعَمْرُكَ مَا أَثْنَى عَلَيْهِ مُبَالِغ بِأَوْفَى الثَّنَا إِلاَّ انْثَنَى كَالمقَصِّرِ[6]

1- نقلا عن ابن العتيق، ماء العينين، الرحلة المعينية، م س، ص:161.

2-القلم: 4

3-التوبة: 129

4- ابن العتيق، ماء العينين، الرحلة المعينية، م س، ص:162.

5- نفسه، ص:176.

6- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، الديوان، الجزء الأول، م س، ص:353.

وها هو الشيخ ماء العينين الأكبر الأشهر (ت 1328هـ/1910م) يجلي هذا القصور ويبينه ذاكرا بعض أسمائه ﷺ، وكما هو معلوم لدى العرب والمسلمين فتعدد أسماء المسمى من رفعته وشرفه:

بِأَيِّ جِهَاتِ المدْحِ أَمْدَحُ أَحْمَـــدَا وَسَمَّـــاهُ رَبِّي اللّـــهُ ذَا وَمُحَمَّدَا
وَلَـــوْ أَنَّ كُلَّ الكَـــوْنِ أَلْسِنَةٌ بَـدَا وَأَثْنَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ لَمْ يُحْصِ مَحْمَدَا [1]

والأجمل من ذلك والأبهى أن يتم اعتبار هذا العجز مدحا في حد ذاته، إنه تعبير أسمى وأرقى عن حب المعينيين للنبي الكريم ﷺ، وما في ذلك شك.

كَذَلِكَ العَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ مَدْحِ رَسُو لِ اللَّهِ مَدْحٌ وَمَا فِي ذَاكَ إِشْرَاكُ [2]

المحور الخامس نفي " الغلو" عن النبويات المعينية:

من الواضح بأن موقف بعض علماء الفقه الإسلامي من ظاهرة الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف هو الذي جعلهم يسمون المديحيات النبوية بكونها تحفل وتتأسس على حضور ظاهرة " الغلو"، فما المقصود أولا بالغلو في المديح النبوي؟

الغلو في اللغة كما هو متداول، من غلا، يغلو، غلوا، نقول: غلا فلان في الأمر بمعنى جاوز الحد وأفرط فيه، فهو غال والجمع غلاة. وغلا في الدين بمعنى تشدّد وتصلّب.

أما الغلو حسب من يدعي حضوره من هؤلاء العلماء، فيتجلى من خلال مظهرين اثنين؛

أولهما: تلك القصائد التي قلّ فيها مديح النبي ﷺ في مقابل مدح آل بيت علي بن أبي

1- الشيخ ماء العينين، محمد المصطفى، الديوان، م س، ص 126.

2- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، الديوان، الجزء الثاني، م س، ص:468.

طالب رضي الله عنه تأييدا لحقهم في الخلافة[1] ، وهذا الأمر كما هو بيّن لا وجود له بتاتا عند الشعراء المعينيين، بقدر ما نجده عند شعراء الشيعة أمثال الكميت بن زيد الأسدي (ت 126هـ)، ويمكن العودة إلى ديوانه " هاشميات الكميت" الذي نظمه تأييدا لحق الهاشميين في الخلافة، ودفاعا عن مشروعهم السياسي في مواجهة خصومهم من الجماعات والمذاهب الأخرى أمويين وخوارج ...

ثانيهما: تلك النبويات التي سعت إلى رفع النبي ﷺ فوق مقامه البشري وفوق منزلة النبوة وإضفاء بعض الصفات الربانية عليه، ثم سؤاله من دون الله عز وجل. وهو الأمر الذي انتشر وساد حسب القائلين به بانتشار التصوف في العالم الإسلامي ابتداء من القرن السابع الهجري، وبصفة خاصة مع بردة الإمام البوصيري (ت696هـ/1295م)[2] .

فإذا كان الوجه الأول من الغلو غائبا عند المعينيين ـ كما أسلفنا ـ؛ فإن الوجه الثاني مردود عليه في بعض مظاهره، وقد جاء الرد بأسلوب شعري متين معجز من الناحيتين الفنية الأدبية والشرعية؛

وَيَكْفِيهِ تَنْزِيلُ الكِتَــابِ بِمَدْحِــهِ وَأَوْصَافُهُ اللَّائِي بِسَالِفِ صُحْفِهِ
وَإِنِّي عَلَى اسْتِحْيَا تَطَفَّلْتُ بِالَّذِي قَدَرْتُ عَلَيْهِ مِنْ مَحَاسِنِ وَصْفِهِ[3]

فَأين هو هذا الغلو؟! والشاعر يؤكد بأن مدحه إنما هو تطفل وعجز أمام وصف الله له ﷺ بالرؤوف الرحيم. ألم يسند الله عزوجل إلى نبيه الكريم هذين الوصفين أو الاسمين الربانيين ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[4] ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[5].

1- جماعة من المؤلفين، حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال، كتاب البيان " سلسلة تصدر عن مجلة البيان السعودية " 1422هـ/2001م، ص:174.

2- نفسه، ص:176.

3- الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، الديوان، م س، ص:210.

4-التوبة: 129

5- الأنبياء: 106

وليس عندي أجمل من رد الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين عمّن يسم بالغلو قصائد المديح النبوي بصفة عامة والنبويات المعينية على وجه الخصوص؛ فشاعرنا بعد أن جال وصال في مختلف الأغراض الشعرية؛ أُلقيت بفضل من الله وحكمةٍ عصا تَسياره وآب واستقرت به داره في غرض المديح النبوي، سائلا ومتسائلا مع زمرة المدّاحين كيف تخشى الغلو الذي يمنعك من مدح الحبيب ﷺ؟ إنه التفريط والتقصير لا محالة وإن ظن المادح أنه بالغ في شعره.

هُنَاكَ عَصَا التَّسْيَارِ فِي المدْحِ أُلْقِيَتْ ... فَلَيْسَ مِنْ وَرَاءِ اللَّـــهِ مِنْ مُتَحَكِّمِ
وَقَدْ حَكَمَ اللَّـهُ العَظِيمُ بِفَضْلِـهِ ... عَلَى كُـلِّ خَلْقٍ مُجْمَلٍ وَمُقَسَّـمِ
أَتَخْشَى غُلُوَّ المدْحِ يَثْنِيكَ وَاسْمُـهُ ... تَقَـــارَنَ بِاسْمِ اللَّهِ كَبِّرْ وَأَنْعِـمِ
نَعَمْ، نِعْمَ ذَا يَـا حَبَّذَا وَخِصَالُـهُ ... بِهَـــا نَزَلَتْ آيُ الكِتَـــابِ المعَظَّمِ
فَلَسْتَ سِوَى التَّقْصِيرِ تَخْشَى بِهِ وَلَوْ ... تَغَـالَيْتَ فِي نَثْرٍ وَفِي مُتَنَظِّمِ[1]

ويقول ماء العينين بن العتيق محددا بالضبط ماهية " الغلو " الذي ينبغي تركه وتفاديه؛

غُلُوُّ النَّصَارَى فِي المسِيحِ ضَلَالَـةٌ ... فَذَرْهَا، وَقُلْ مَا فِي عُلَاهُ تَشَـــاؤُهُ[2]

ففي قوله إشارة إلى ما جاء في صحيح البخاري من أن النبي ﷺ قال: **"لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا عبدُ الله ورسوله"** ؛ أي لا تمدحوني بالباطل ولا تُفرطوا في مدحي.

فالنصارى تجاوزوا الحدّ في مدح عيسى بن مريم عليه السلام حتى جعلوه إلها يعبدونه كما يعبدون الله فهذا هو الغلو المنهي عنه، فقالوا ابن الله ونحو ذلك مما هو شرك صريح كما في الآيتين الكريمتين ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح**

1- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، الديوان، الجزء الثاني، م س، ص:545.

2- ابن العتيق، ماء العينين، الديوان، م س، ص:450.

ابن مريم﴾[1] ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد﴾[2].

فشاعرنا على دراية تامة بالذي قد يوصله إلى الغلو، شأنه في ذلك شأن كافة شعراء المنطقة المدّاحين الذين كانوا علماء مُشاركين جمعوا بين العلم والأدب والفقه، فعرفوا ما لهم وما عليهم، ولهذا لم يكونوا أهل غلو وإفراط، ولا أهل تقصير وجفاء، ولهذا أيضا ـ كما قلنا سالفا ـ فقد أفحمت النبويات المعينية من يسمها بالغلو من عدة نواح، من الناحية الأدبية والفنية ومن الناحية الجمالية، بله عنك الناحية الشرعية.

على سبيل الختم:

نستخلص مما سبق أن النبويات المعينية شكلت لونا شعريا متميزا، أثبت ذاته في سياق التأريخ للحركة الأدبية والفكرية التي عرفتها المنطقة إبّان القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، وهي النبويات التي جاءت متميزة على عدة مستويات بنية وأساليب وموضوعات، وأكدت ارتباط المعينيين كغيرهم من الشعراء الصحراويين بتراثهم الديني، وجلّت تعبيرهم عن عشقهم الأبدي للنبي الكريم ﷺ وتشوفهم الدائم إلى زيارة روضته الشريفة.

إنه العشق الذي لم يختزله المعينيون في الشعر فقط؛ بل عبّروا عنه، فأبدعوا كعادتهم وأمتعوا من خلال أجناس أدبية أخرى من أبرزها أدب الرحلة الحجازية.

وختاما ليست هذه المقالة سوى محاولة تطمح في كثير من التواضع؛ إلى أن ترسم بعض الخطوط والملامح في الأدب المعيني الذي لا يزال في حاجة ماسة إلى مزيد من الجمع والتحقيق والدراسة والطبع والنشر خصوصا أن الكثير منه لا يزال في وضعه المخطوط، شأنه في ذلك شأن أدب وثقافة المنطقة بصفة عامة.

والله من وراء القصد، وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

1- المائدة 74

2- المائدة 75

المصادر والمراجع:

أولا: الكتب المطبوعة:

- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح للبخاري من رواية أبي ذر الهُروي، تقديم وتحقيق وتعليق عبد القادر شيبة الحمد، الطبعة 1، 1429 هـ/2008م، الجزء 2.

- الجراري، عباس. الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء الطبعة الثانية 1402هـ/1982م، الجزء الأول.

- الجراري، عباس. شعر الصحراء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1988م.

- جماعة من المؤلفين، حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال، كتاب البيان " سلسلة تصدر عن مجلة البيان السعودية " 1422هـ/2001م.

- السوسي، محمد المختار. سوس العالمة، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2 1414هـ/1984م.

- السوسي، محمد المختار. المعسول، مطبعة النجاح الدار البيضاء، الجزء السادس، 1382/1962م.

- الشنقيطي، أحمد بن الأمين. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، والكلام على تلك البلاد تحديدا وتخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة 6، 1429هـ/2008 م.

- ابن الشمس، أحمد. النفحة الأحمدية في بيان الأوقات المحمدية، جزآن، مطبعة الجمالية، مصر، الطبعة الأولى، 1330هـ.

- الظريف، محمد. الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، مطبعة بني إزناسن، سلا، الطبعة

1، 2003م.

- الشيخ ماء العينين، محمد المصطفى. مبصر التشوف على منتخب التصوف، تحقيق: الظريف محمد وعيناق محمد، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط 1، د ت.

- ماء العينين، ابن العتيق. الرحلة المعينية، تحقيق: الظريف محمد، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط 1، 1998م.

- المقري، أحمد بن محمد. فتح المتعال في مدح النعال، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 2006م.

- ابن الشيخ ماميناً، الطالب أخيار. الشيخ ماء العينين: علماء وأمراء في مواجهة الاستعمار الأوروبي منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتنمية، مطبعة المعارف الجديدة، ط 2، الرباط 2011م، جزآن.

- اليعقوبي سيدي محمد ولد بزيد، مُعجم المؤلفين في القطر الشنقيطي، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، تونس، 1996م.

ثانيا: الدواوين الشعرية:

- الشيخ ماء العينين، محمد المصطفى. الديوان، تحقيق: بسام محمد بارود، إصدارات الساحة الخزرجية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 1429هـ/2008م.

- ماء العينين، مُحَمْدِ بن الشيخ أحمد الهيبة. الديوان، جمع وتحقيق وتقديم ماء العينين النعمة علي منشورات جمعية الشيخ ماء العينين للتنمية والثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة 1 1431هـ/2010م.

- الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، الديوان، جمع وتحقيق ودراسة:

ماء العينين العالية، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، رقم 17، مطبعة بني إزناسن، سلا، ط 1، 2004م.

- الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، الديوان، جمع وتحقيق وتقديم ماء العينين النعمة علي. منشورات وزارة الثقافة، دار المناهل، الرباط 2007م، جزآن.

- ماء العينين، ابن العتيق. الديوان، جمع وتحقيق وتقديم محمد الظريف، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، رقم 18، مطبعة بني إزناسن، سلا، الطبعة 1، 2004م.

ثالثا: البحوث الجامعية:

- أعلام الحركة الأدبية والفكرية في الصحراء المغربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أطروحة لنيل الدكتوراة الوطنية في الآداب، تخصص النص الأدبي العربي القديم، إعداد: مرزوك، سمير، تحت إشراف د. عبد الله المرابط الترغي، وعبد اللطيف شهبون، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 2015م، القسم الأول.

- الشعر العربي في الصحراء المغربية: جذوره التاريخية، ظواهره وقضاياه، أطروحة لنيل دكتوراة الدولة في الأدب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، إعداد: مفدي، أحمد، إشراف: د. عباس الجراري، السنة الجامعية: 1989 ـ 1990م الجزآن الثاني والثالث.

- ديوان في مدح الشيخ ماء العينين، رسالة لنيل دبلوم السلك الثالث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس الرباط، تحقيق: محمد الأمين خليفة، إشراف: د. أحمد شوقي بنبين، السنة الجامعية 1993 ـ 1994م، جزآن.

رابعا: الدوريات:

- مجلة " دعوة الحق " السنة 22، عدد 3، رجب 1401هـ/ ماي 1981م.